الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ فى الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
شارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد الحادى عشر ٢٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥٦ — ١ يوليه سنة ١٩٣٧ السنة الأولى

فهرس العدد

صفحة			
٦٥٠	عذراء حلب	... ...	بقلم الأستاذ فليكس فارس ... ...
٦٥٧	فى المروج	لمكسيم جوركى	بقلم أحمد فتحى مرسى ... ...
٦٦٣	يوميات نائب فى الأرياف ...	صور مصرية	بقلم الأستاذ توفيق الحكيم ... ...
٦٦٤	عائـــل	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى ...
٦٧٤	فى ثمرة الموت	لامبروس بيرس	بقلم الأستاذ عبدالحميد حمدى ... ...
٦٨٢	الرســـالة الأخيرة	لرالف بلومر	بقلم محمد عبد الفتاح محمد ... ...
٦٨٧	الطفل السيد	لرابندرانات طاغور ...	بقلم شكرى محمد عياد ... ...
٦٩٢	النقد الذهبى	لفرانسوا كوبيه	بقلم محمد العزاوى ... ...
٦٩٧	اعترافات فتى العصر	لألفريد دى موسيه ...	بقلم الأستاذ فليكس فارس ... ...
٧٠٤	الأوذيســـة	لهوميروس	بقلم الأستاذ دريني خشبة ... ...

عذراء حلب

للأستاذ فليكس فارس

منذ ٢٧ سنة كنت أتصفح تاريخ العرب ، فخطر لي أن أنشيء منه أقاصيص أضمنها الوقائع بأمانة المؤرخ وأنسج بردتها بخيال الشاعر ، وما كان في ذلك العهد من يهتم للأقصوصة فيما أذكر لا ترجمة ولا تأليفاً . كتبت هذه الأقصوصة ونشرتها في جريدتي التي كانت تصدر باسم (لسان الاتحاد) سنة ١٩١٠ في بيروت ، وأردت متابعة التأليف فاجتاحت قلمي عواصف السياسة ترده من الماضي إلى الحاضر . ومرت السنون فاذا أنا أرى هذه الأقصوصة بين مئات الصفحات التي أملتها السياسات الحوالة كحجر كريم يلتمع على أكوام من الرماد .

فليكس فارس

ولما فتح بيت المقدس أبوابه لعمر بن الخطاب ، وقف هذا الخليفة العظيم على أطلال مملكة الرومان وآثار الملك الخالد الذي وضع آساسه رجل ليس من هذا العالم ، وقف الخليفة حزيناً على تلك الأرض المقدسة التي دنسها الرخاء وتحولت فيها أشرف المبادئ إلى طقوس وأوهام ، فلم يملك النفس أن يحدج البطريرك سفرونيوس بنظرة ما أكثر من يستحقها من كاهن وشيخ في هذه الأيام

وكان الحجر الذي ألقى بعقوب رأسه عليه ليحلم حلمه المشهور مغطى بالأقذار ، فأمر الخليفة أتباعه بتطهير ذلك المكان حيث بنى الجامع الفخم ، ثم دعا إليه أبا عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وخولها السيادة على سورية وفلسطين ، فكانت بلاد قيصرية فيلبس نصيب يزيد ، وسورية على رحبها نصيب أبي عبيدة . فتحت فلسطين أبوابها ليزيد ، وكانت قرية رام الله أول من أبرم عهدا مع الفاتح ، ولكنه وقف عند أبواب قيصرية لمناعتها ، وتحول عنها راجعاً إلى أبي عبيدة فانضم الجيشان العربيان ودفعا قوتيهما إلى سهول سورية ووجهتهما حلب

* * *

وكان يوم من أيام الربيع والنسيم البليل يهب على جنائن حلب المطوقة المدينة تحسبها عقوداً على نحر حسناء . هنالك ، في تلك المدينة التي تنصب الخيرات إليها من جهاتها الأربع : مصر وطرابزون وبغداد وأرضروم ، كان شعب كبير من بقايا مملكة الدنيا ، مملكة الرومان الخالدين بقوتهم وضعفهم وضلالهم ورخائهم

وكانت حلب ، بمدائنها العديدة منفرطة على سهولها الخصبة الخضراء كالثريا بنجومها المبددة على صفحة الأطلس الأعلى . وفي وسطها المدينة الكبرى حاملة قلعتها كالتاج على مفرق بهائها وسلطانها . . .

نحن الآن أمام هذه المدينة الزاهرة في أواخر حكم اليونان على مدخل عصر جديد وحياة جديدة ، في الأسواق حركة التجارة وحياة الأمم ، وفي القصور والجنائن مجالي اللهو والفحشاء : قبور الشعوب . . .

* * *

وكانت غادة من بنات اليونان السوريين جالسة إلى نافذة تطل على المروج في أطراف المدينة وقد

أرخت شعرها على كتفيها وأسندت وجهها الأبيض الناصع إلى يدها وأناملها تتحرك باهتزاز عصبي ، وعيناها شاخصتان تارة إلى السماء وتارة إلى أسوار القلعة الراسية فوق المرتفع كبرج حصين يهدد الآفاق ويهزأ بما انبسط تحته من سهول ...

ومالت الشمس إلى الغرب ، ورنت أجراس المعابد من جوانب المدينة فانتبهت الفتاة ورسمت على وجهها وصدرها رسم الصليب ، وهي معلقة أبصارها على الطريق المتوارية في السهول البعيدة

ولاح بين الجنائن شبح تقدم مسرعا حتى كان أمام النافذة فوقف هناك راسماً حلقة في الهواء ثم اختفى وراء أشجار الفستق الغضة

وأرسلت الشمس قبلتها الأخيرة على أحجار القلعة وتوارت وراء الجبال السحيقة

مرت الساعة الأولى من الليل وساد الظلام

وكانت الحديقة المحاذية لبيت غادة حلب قد أقفرت وأغلق بابها الحديدي

وكأن الأشجار قد شعرت بانطفاء عيون الرقباء فمالت مع النسمات تتعانق أغصانها فتمتزج أوراقها بحفيف كأنه ارتجاء الشعور على النحور ...

وظهرت فتاة تحت جنح الليل ملفعة بدثار من أجل ما نسجت أنوال حلب اليونانية ، وقفت الفتاة أمام المدخل الحديدي وشخصت إلى أعلى رتاجه ، وما عتمت أن انقض من أعلى السور إلى الحديقة رجل ملتف بعباءة وعلى رأسه كوفية سوداء وعلى جنبه يماني محدوب ؛ انحدر كما ينحدر الطير من الهواء منقضاً على غصن ، أو كفراش الربيع تسكره الزهرة بعبيرها فتجذبه إليها ...

— هيلانة !

— دامس !

ووقف البطل العربي مرتجفاً كأنه ماثل أمام اللات والعزى ، يعبد في جمال الفتاة أصنام أجداده ، وضع يمينه على قلبه ، وشماله لم تزل قابضة على مقبض سيفه ، وقال متكلما باليونانية ولهجة الضاد بادية في كل مقطع من مقاطع كلماته :

— إذا كان هذا القلب لا يكفيك من الدنيا ، فخير لي أن أعود إلى الصحراء وأموت . لماذا لا تتبعين من جاء ليقدم إليك حياته ويحملك إلى بلاد الحب

وكان دامس قد جثا أمام هيلانة وهي تنظر إليه ملياً ثم تلتفت إلى ما حولها ، والدمع يجول في عينيها ؛ وبعد سكوت عميق وضعت الفتاة يدها على كتف البطل العربي وقالت :

— أحبك يا دامس ، ولكنني أحب بلادي . إن التي تولد في رياض حلب لا تقدر أن تعيش في لوافح الصحراء . ولولا أنني آملة احتلال جيوشكم هذه البلاد لكنت أبارحها معك لأموت بين ذراعيك حيث تشاء ، ولكن لا تنس يا دامس أن أبطال عمر واقفون على مقربة منا ، وأنني أنتظر مع أهلي وأبناء هذه البلاد الجميلة نهاية استبداد خلفاء هرقل لينهض هذا الشعب البائس من شقائه بعد أن طال استعباده لكبرياء أسياده . لقد استحالت الشرائع السامية التي سادت أجدادنا إلى قذارة عند قاعدة عروش الظالمين الذين لا يعرفون غير شريعة القساوة والاغتصاب . ألا تذكره يا دامس ، ذلك الشاب الزاهد المتشح بالسواد الذي رأيته يتمشى أمام هذه الحديقة في أول يوم رأيتك فيه ؟

— إنني أذكر ذلك

وارتعش دامس كأن فى هـذه الذكرى ناراً لاسعة ، فابتسمت الفتاة بمرارة وقالت :

— أجل هى شرارة الغيرة ، يا ابن الصحراء ! هذه لمعاتها فى أحداقك . لا تنكر . أتظن أننى أحببته ؟ أف لهذا المرض الهائل الذى لا تعرفه بنات اليونان فى رجالهن !

رفع دامس بصره إلى السماء وقد خرج من فمه أنين عميق كأنه زئير ليث جريح وقال :

— إن لم يكن فينا نحن العرب من داء غير هذا الداء لكفانا دلالة على ما فينا من أنفة وشمم . هى معزة النفس تتألم . هو الدم يحترق بحرارة الصيانة والشرف . هو المجد الأثيل ذلك الداء . أو تسمينه داء يا ابنة المجد المتداعى التى لا ترى حولها غير رجال استحجرت قلوبهم وجمد دمهم فى عروقهم المتراخية ! إن الغيرة ليست واحـدة فى قلوب الرجال يا هيلانة ، فمنهم من يغار لأنه تعود الانغماس فى الشهوات فهو لا يرى إلا الشر حيثما أدار بصره ؛ ومنهم من يغار عن صيانة فى النفس ورفعة فى القلب ، وما أنا ممن يغترون بما يشعرون . أريدك سامية كما يصورك خيالى العربى فى دماغى الملتهب . أريدك واثقـة من حبى الى درجة إظهار نفسك أمامى كما هى ؛ ولعلك لا تدركين ما أرجوه منك . لقد لمحت منك نظرة ألقيتها على ذلك الزاهد ولم تزل تلك النظرة مستقرة كالسهم فى قلبى ، وأراك تعمدين إلى التمويه كلما أردت سبر سرك . ونحن معشر العرب لم نتعود الكذب . قولى لى إنك كنت أحببت ذلك الزاهد فلا أحنق ولا أثور ، ولكن الشك فى صدقك وإخلاصك يقضى على . لقد أبت نفسنا أن تلتصق بالكاذبين ونحن نحملها تحت البنود إلى الفتح المبين ...

وكان الحماس قد بلغ أشـده فى دامس وهو يتكلم فارتفعت كوفيته عن جبينه واسترخى عقاله فلاح جبينه الأسمر مكللا بقطرات العرق ، وكانت عيناه ترميان شرراً ؛ وذعرت الفتاة من هذا المشهد فأصبحت مخلوبة أمام حبيبها تندفع الى الاقرار فيصدها ما تراه من حماسة ، كان دامس يطلب الحب فى الحق وهى تحاذر أن يقضى ذلك الحق على حبه

شعرت هيلانة بحرب تستعر فى قلبها بين ماضيها وحاضرها ، فأحنت رأسها بتعب كما تنحنى الزهرة أمام عاصفة هوجاء ، فقالت فى نفسها : « إنه وهو فى شكه يكاد يجن ، فما يكون حاله لو عرف الحقيقة ياترى ؟ » إن الحاضر له ومستقبلى بين يديه ؛ أما الماضى فهو لى ، لى وحدى أحتفظ بأسراره وليس لغير الله أن يسبر أغواره

على أن صوتاً خفياً كأنه الأنين كان يرتفع من ضمير الفتاة هاتفا :

« إن من خدع فى الحب فقد كفر بقلبه وقضى على عواطفه ، إن المحبة المستقرة على الخفايا والأسرار ليست محبة كما أن الله إذا جهل الوجود لا يكون إلـها »

ولكن مدنية ذلك الزمان لم تكن تؤهل أبناءها لسماع مثـل هذا الصوت الحق ، لذلك انتفضت هيلانة كأنها تستفيق من حلم عميق وقالت :

— لقـد رجوتك مرارا يا دامس ألا تعود إلى مثل هذا الكلام . حلفت لك وأكرر أمامك القسم بأننى ما أحببت سواك فاكتف

— أمام قسمك أكذب نفسى وعيانى يا هيلانة ، وأنا أقسم لك بأننى لن أحول عن نيلك مادام فىّ دم وحياة ، ولو كلفنى فتح حلب هلاكى ، فما أنا راجع عن أمانى ولو اضطررت إلى تسلق جدران القلعة وحدى

— اسمع يا دامس ، لقد قطعت على الكلام بلواسع غيرتك الجنونية ، فلم تصبر ريثما أقص عليك ما تعلم . ذكرتك بالزاهد لا لأثير حنقك ، بل لأقول لك إنه مات مقتولاً بسيف أخيه في ساحة حلب نفسها

— إذاً هو أخ يوا كينا حاكم البلاد ، وآخر حامل لتاج هرقل .. علمنا أن هذا الملك قتل زاهداً ولكننا ما علمنا أن القاتل أخوه

— إن يوحنا الزاهد هو أخ يوا كينا الظالم السفاح ، فان يوحنا الذى أسأت به الظن ، قد دعا الشعب للاستسلام للعرب ، لأنه عرف عددهم وتيقن نبالة قصدهم ، وكان قد ذهب إلى معسكر أبي عبيدة يتبعه عدد من أهل المدينة فأبرم مع الفاتحين عهداً ، ورجع بمن معه عند الغروب على أمل تسليم المدينة عند بزوغ الفجر ، ولكن يوا كينا كان في انتظارهم في الساحة العمومية مع جنده ؛ ولما التقى بأخيه ألقى القبض عليه وأمر بنحر من اتبعوه واحداً فواحداً حتى خضبت الساحة بدمائهم ، فثارت حمية يوحنا فصرخ بأعلى صوته أمام الجماهير المحتشدة :

— لبأت العرب بعددهم لتخليص الشعب من ظلمك . . .

حينئذ لمع سيف يوا كينا مخترقاً صدر أخيه ، فسقط المسكين قتيلاً وهو يعمل على تحرير قومه من السفاح

وتهدج صوت الفتاة بغصة الدموع ، فشعر دامس بهبوب نسمات الذكرى من وراء القبور فارتعش وكادت غيرته أن ترجع به إلى خطابه المبتور ولكنه ثبت في موقف التفكر بأحوال الحملة الفاتحة فأمر يده على جبينه وقال :

— وبعد ذلك ؟

— التفت المتهوسون حول يوا كينا لأنهم اعتقدوا فيه الاستبسال في الدفاع عن البلاد ، وقد تبعوه الى معركة أمس وأنت أدرى بما سيكون

— أليس في المدينة بقية من حزب القتلى يميل الى التسليم ؟

— بلى ، كلهم يريدون الأمان ، ولكن وقاحة يوا كينا تثقل عليهم ولم تزل أشباح إخوانهم تتراءى في الليل على الدماء التي خضبت الساحة ولم يسمح الظالم بمحو آثارها

وكان دامس ينكث الأرض برأس سيفه مستغرقاً في التفكير ، ثم رفع رأسه وقال :

— إلى الملتقى إذاً يا هيلانة ! جددي إيمانك واثبتي على العهد . إن شعبك سيحرر من عبوديته ، وحين يسود العدل ربوعك سأقيم لك من أضلاعي بيتاً تسكنينه على أرض أجدادك ، ولكن اعلمي أنني لم أزل أذكر تلك اللفتة الهائلة .. ويلاه . . . إن الأيام هاتكة الأستار ، فاذا رأيت المستقبل أشد غيرة منك على شرفي فانني أحول هذا السيف الى صميم القلب لأموت . . . لك هذه الدقائق القليلة ، يا هيلانة اهتكي أمامي أستار كبريائك فلا تخادعي نفسك . أجيبي بحق إلهك الذي أعبد وتعبدين ، هل أحببت أحداً قبلي ؟

— لا . . . . .

وتعانق الحبيبان

وكانت قطرات الأمل تسقط كالندى على قلب دامس ، ودموع هيلانه تنحدر متراجعة إلى قلبها كانسكاب الغسلين على حجارة جهنم السوداء . . . .

* * *

وساد الظلام على مدينة حلب وأرجائها وكانت مضارب الحملة العربية منتشرة حول أبواب المدينة

تشب النيران بينها والجنود واقفون ينتظرون المشاء

على أن من يتميز هؤلاء المربان عن قرب يجد بينهم عدداً وفيراً من سكان المدينة ويرى من حين إلى آخر نسوة يونانيات حاملات للجنود أطباق الحلوى

وكان هواء الليل يحمل إلى بعيد صوت نشيد عربى فخيم يدوى كأنه هتاف الحجاز على أطلال بيزانطة المتداعية ، ثم لا يلبث أن يجاوبه نشيد متقطع باللغة اليونانية كأنه أنين الأجيال المزمعة الرحيل عن ملعب الدنيا

على مقربة من أحد المضارب الواسعة كان البطل دامس جالساً القرفصاء وقد تشنجت أصابعه على مقبض سيفه وهو غارق بالتفكير ، مضت ساعة وهذا الرجل جامد لا يتحرك ولكن خشيش الأعشاب اليابسة أمام مضربه نبهه لقدوم رجل طويل القامة ملتف برداء يونانى وقف أمامه وقال له :

— أراك قانطاً يا دامس وليس لمثل هذا اليوم يحفظ الأبطال القنوط

بقى دامس جامداً ولكن ارتجافا عصبيا كان يجمد جبينه العالى ، فرفع رأسه وقال :

— سوف نعود من حيث أتينا ، وهذا العقاب الكاسر متحصن وراء هذه الجدران . والله لو أن هذا الحصن المنيع حراب مسمومة لاخترقته بصدرى ، ولكنه حجر أصم جامد فلا هو يقتلنى ولا أنا أقوى على تحطيمه

وانتفض دامس محدقا بالقلعة وهى مخترقة السحاب كأنها تهزأ بالزمان

— أواه ! لو يستبدل الله ساعدى بجناحين لأطير وأنقض من حالتى على يواكينا الغائص الآن فى بحار ملذاته !

وسقطت من جفون دامس دمعتان نزلتا ببطء على شاربيه فمسحهما بأردانه وشخص إلى السماء ، وتقدم الشيخ الطويل إليه حتى لامسه ووضع يده على كتفه وقال :

— اسمع أيها العربى . أنا يونانى أحفظ فى ذاكرتى كثيراً من أمجاد مملكة هرقل فى سوريا . أنا مسيحى أؤمن بالمسيح وإنجيله الطاهر ، فأنا اليونانى المسيحى سأسلم أمنع نقطة فى ملكنا إلى يد العربى المسلم ، ويشهد الله أن ما أقوم به إنما هو واجب يمليه الضمير على ، فلست بالخائن ولو وصمنى الناس بالعروق . إن حلب بأسرها تسلم زمامها الخليفة نبيكم ولكن يواكينا العاصى يتحصن فى هذه القلعة ويطيل الحصار مدعياً أنه يصد هجمات الاسلام حفظاً لدين أجداده وهو الذى يدعى المحافظة على الدين قد صبغ الساحة بدماء رجالنا وكان ابنى الوحيد بين أولئك الوطنيين المتمردين على الفساد والظلم

بكيت وحيدى بكل دموعى ، وأقسمت ألا أجيب داعى المنون ، وأن أتمرد عليه إلى أن يقيض لى الله أن أرى انهيار هذا الملك وانحطام عرش يواكينا الغاشم ، إننى لن أترك الحياة الا وأنا أحرق قطعة من عرش يواكينا على قبر ابنى الشهيد

واختنق صوت الشيخ فترة ليرتفع بكل نبرات الاقتناع فقال :

— لست بحاجة لاطالة الكلام لأبرر نفسى أنت تعرف أن النصارى كلهم أنفوا الذل وتركوا الحياة مستعبدين لرجل لا إله له غير كبريائه وشهواته

إن من يلطخ يده حتى بدم ابن أبيه وأمه ليس إلا كافراً بالله وبروح الله ، وأنا أعتقد كما يعتقد جميع العقلاء فى بلادنا أن دين النبي العربى ليس إلا شعلة من روح الحق يرسلها الله الى الأرض لتجديد قوى الخير والقضاء على الفساد والضلال ، فالنصرانية الحقة المتألقة من الطغاة الكافرين بها تمد يدها من قلوبنا لتصافح الاسلام ، وما هو إلا صنوها الذى حطم الأصنام ودعا الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد

إن يواكينا يتلاعب بنا باسم الدين ليدعم عرشه الهاوى بجماجم أبنائنا ، وهو الكافر بربه فكيف يعتقد بالمسيح ؟ إنما الدين هو العدل ، وما أورث الله الأرض إلا رجال الحق ، وأنتم أولئك الرجال

— إنى أومن بالفتح المبين لاسقاط سلطنة المارقين ، ولكنى لا أتميز السبيل إليه فى قضاء الله ، وهذه القلعة واقفة بين الماضى والمستقبل حلقة جبارة تملأ الفضاء ، وأية قوة ستصل إليها لتكسرها ؟

— إذهب الى أبى عبيدة وتعهد له بفتح القلعة وعد الى لتتم عملنا هذا المساء ، ولتكن جنودكم على أهبة الهجوم

— إنى أتبعك أيان تريد ، اقذف بى الى أشداق الموت . إن الجهاد حق على المؤمنين

ونهض دامس وقد ملأت عقيدته جوانب نفسه ، فخرج القلعة المتلألئة بالأنوار بلفتات النسر المتحفز للانطلاق ، وما تقدم بضع خطوات حتى استوقفه خفقان قلبه العاشق وقد هتف صوت هيلانة فيه : تقدم إلى اللقاء ، الى كوثر الحب المتدفق من شفتى ، فانتفض المجاهد المطلق فى وجدانه يخنق هذا الصوت الدخيل خشية تطرقه الى نبرات الصوت الخالد المهيب فى أعماق ضميره الى الجهاد من أجل الحق ، ولكن البطل العربى فى نشوة إيمانه كان قد لامس بحسه الباطن الوقائع الكائنية التى تتجلى مبادئها وراء الزمان والمكان ، فسمع هاتفاً عميقاً بعيداً عن حواسه يناديه :

إن فى القلعة قبر حبك ، ولكن وراء بابها المحطم بقبضة يدك الخطوة الأولى للعهد الجديد ، بداية حكم العرب المجيد ...

وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وأخذت الأنوار تنطفىء متتابعة داخل أسوار القلعة ، وبلغ السكر حده فى أدمغة الجنود والحراس فثقلت أجفانهم وناموا وهم يمضغون بقية الالحان اليونانية التى كانوا يتشدقون بها ...

وكان يواكينا لم يزل ساهراً يكرع الراح فى إحدى البنايات الفخمة القائمة إلى جنوب القلعة وبين يديه غادة رومية استندت إلى عود تنطق أوتاره لغة القلوب

وكانت تنشد قائلة :

« وإذا جن الليل وأرسلت السماء من نجومها لمات الأسرار ، عندما يستغرق كل شىء فى السكون ينتبه الكون بأسره فى عين تلمع ، وقلب ينبض ، حينئذ إذا كنت جنديا فاجعل من درعك كأسك ، وإن كنت كاهناً فاكرع الخمرة من كأس الهيكل ، الحب هو الاله المعبود ، فان زهدت فى الحب كفرت بربك »

وكان يواكينا يصوب أنظاره حيناً فحيناً إلى الجهة الشمالية من البرج فتخفق أهداب جفنيه على نظرات منكسرة فى أحداقه

وكانت تقف أبصاره على غرفة موصدة هنالك فى طرف القلعة حيث كان يقيم أخوه الزاهد يوحنا .

هنالك فى تلك الغرفة المدخل السرى الوحيد للقلعة ولكن ذلك المدخل موصد الآن على بقايا أثواب الراهب القتيل وقد علقت بها سلسلة ذهبية مربوطة على ذخيرة انفتحت عن صورة فتاة وخصلة كبيرة من الشعر

للشر فترات همود كما للخير غفلات فى ضمير الانسان

وكان صوت المغنية الرومية يرن فى أذن السفاح فيذهب قسم منه إلى ضلاله ويتساقط قسمه الثانى على روحه كالندى على الأزهار اليابسة . كانت كلمات الأغنية البذيئة تستقر فى شهوته وتدور مع دمه الفاسد ، ولكن اللحن أو النغمات أو الايقاع ، تلك الأصوات السرية التى لم يقو الانسان على إفسادها كانت ترفرف فوق كلمات الأغانى كأنها حمامة بيضاء تائهة فوق جيفة منتنة ، فتذكر يوانيا كينا أن فى الكون شيئاً لا يقدر الانسان أن يتناوله بيد الأرجاس

ولكن هذا المحارب اليونانى العاتى الذى تمتد إلى معقله المنيع على أنهار من الدماء لم تستوقفه طويلا همسات نجواه ، فتقدم مترنحاً فى سكرة إلى الفتاة الرومية يحتضنها ويداعب شعرها الذهبى الطويل مولياً ظهره لباب غرفة أخيه الموصدة ..

* * *

وفى تلك الدقيقة ، ابتدأت أخشاب ذلك الباب بالسقوط تحت ضربات خفية وظهر شبح اليونانى الطويل دليل دامس فتقدم باحتراس متطلعا إلى كل جهة ، وكان هنالك حارس ممدد على الأرض فانتبه من نومه مذعوراً قابضاً على سيفه ووقف لينادى ، ولكن دامساً انقض عليه من الغرفة كالأسد الثائر فكتم أنفاسه وألقاه صريعاً ، وكان الشيخ اليونانى قد تقدم كالبرق الخاطف نحو الباب الكبير ففتحه من الداخل ، ولم تمض فترة من الزمان حتى كان أبطال العرب مستولين على الحصن تخفق على مرتفعاته أعلامهم الخضراء ...

* * *

وتكحل الشفق بأوائل ذرات النور

فى إحدى خنادق القلعة كانت جثة باردة ممتدة وقد تقلصت أصابع كفها على ذخيرة مفتوحة تدلت منها خصلة شعر تخضبت بالدم ...

الذخيرة ذخيرة يوحنا الزاهد القتيل يشهد رسم هيلانة وشعرها فيها بما أودى بحياة دامس البطل العربى الذى دون التاريخ فتحه أبواب الحصن المنيع

وفى القاعة الكبرى ، داخل الحصن ، كان رجل يكلل العرق جبينه طارحاً سيفه عند قدميه يدور به أبطال العرب وهو رافع يده هاتفاً :

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ..

هو يوانيا كينا ذلك المتشهد ، هو مرهق شعبه وعبد شهواته وناحر أخيه بيده هو الجانى على دين الله فى المذهبين الموصلين الى الله

وبين المقابر كان شيخ هرم يحرق قطعة من الخشب الموشى بالذهب فوق حفرة لم تجف ردومها بعد ....

وعلى قصر من قصور حلب الشاهقة ، كانت فتاة ترفع أبصارها إلى السماء وتضع يدها على قلبها معلقة أبصارها على الطريق منتظرة عودة من خلده الحب وأرداه الخداع ...

فليكس فارس